

التصوف في بجاية على ضوء كتاب "عنوان الدراية" للغبريني.

أ. حفيظة بن داود جامعة تلمسان

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع التصوف وتشعباته في بجاية في العهد الحفصي من خلال القراءة المتأنية الاستنتاجية لكتاب عنوان الدراية لمؤلفه الشيخ أبو العباس الغبريني قاضي بجاية والذي يورد في كتابه إشارات عن واقع التصوف والحالة الثقافية لبجاية بصفة عامة.

الكلمات المفتاحية: التصوف-بجاية-عنوان الدراية-الدولة الحفصية.

Résumé:

Cette étude traite le sujet du soufisme et ses ramifications a Bejaïa a l'époque hafside par attentive lecture d'un livre « ounwan el-diraya » écrit par Abou El-Abbas Al-ghabrini qui était le magistrat du Bejaïa, Ce livre fournit de nombreuses signaux sur la science et la culture a Bejaïa dans le contexte des personnages définis présentent ou qui arrivent de différent pays du monde islamique.

Les mots clés : Soufisme, Bejaïa, ounwan El-diraya, Etat hafside.

التصوف في بجاية على ضوء كتاب "عنوان الدراية" للغبريني.

أ. حفيظة بن داود

جامعة تلمسان

مقدمة:

تنوعت المصادر التاريخية التي نقلت لنا الأحداث السياسية والاجتماعية للمغرب الأوسط بين الحوليات التاريخية والمعاجم الجغرافية بما في ذلك كتب المسالك والممالك ناهيك عن كتب التراجم التي تحمل في طياتها إضافة إلى التعريف بالشخصيات الذائعة الصيت صورة شاهدة على الواقع الثقافي والعلمي للمدن التي ينتمي إليها المؤلف أو مرّ بها في مسيرته العلمية أو أثناء تقلّده الوظائف التي أسندت إليه، فالكاتب حين يقدم لنا شخصية معينة بذكر فضائلها ومستواها العلمي ومدى تحصيلها للعلم، يكون آنئذ قد بسط لنا الجوانب التي نستطيع من خلالها أن نستكشف الحالة الثقافية التي تميّز المكان والزمان المذكوران.

وفي هذا الإطار وفي خضمّ بحثنا عن الحالة الاجتماعية لمدينة بجاية في العهد الحفصي وقع اختيارنا على كتاب "عنوان الدراية" للشيخ الغبريني نظرا للكم الهائل من المعلومات التي استقيناها منه خصوصا فيما يتعلق بموضوع التصوف، وقد حاولنا أن نجيب على بعض التساؤلات في هذا السياق: لماذا استقطبت بجاية كل هؤلاء العلماء؟ ما هي مظاهر تفشي التصوف في بجاية؟ وكيف تطور التصوف بها إلى هذا الحد؟

1-تعريف التصوف:

اختلف العلماء والباحثون في تحديد مفهوم متفق عليه للتصوف، ونتيجة لذلك تصادفنا مجموعة من التفسيرات لهذا المصطلح الذي لا يمكن ضبطه، فعبد الرحمن بن خلدون يرى أنه "علم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة" كما يرى أنّ "أصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها"¹. فيما يرى الأب صبري المقدسي أن التصوف لا يعدو كونه طريقة يتبعها الإنسان للوصول إلى الله والتقرب منه عبر مجموعة من السلوكيات على غرار التقشف والزهد في الحياة². كما يُعرّف على أنه حركة سيطرت على عقول وقلوب المسلمين³، فيما يعرفه آخرون تعريفا فلسفيا فيقولون بأنه علم لمعرفة الطريقة التي يترقى بها النوع الإنساني في مدارج السعادة بقدر الطاقة البشرية⁴.

للتصوف اشتقاق لغوية كثيرة فابن تيمية يرى أنه نسبة إلى لبس الصوف⁵، الموافقون له يرون أنّ أتباع هذا الاتجاه لبسوا الصوف اقتداء بالأنبياء والرهبان والمتنسكين⁶، فيما يرى آخرون أنه نسبة إلى الصفاء الروحي أو نسبة إلى الصف الأول⁷، أو نسبة إلى أهل الصُّفّة⁸. يعتقد جرجي زيدان أن أصل الكلمة يوناني من كلمة "صوفيا" التي تعني الحكمة والفلسفة⁹، مما يعني حسبه أن الصوفية اكتسبوا هذا اللقب نسبة إلى الحكمة، وهو بذلك يوافق آراء العديد من المستشرقين¹⁰. ينفي القشيري كل هذه الاشتقاقات في رسالته فيقول: "ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب فأما قول من قال إنه من الصوف فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو صوفي"¹¹؛ إلا أن النسبة إلى لبس الصوف ظلت طاغية على جميع التفسيرات والاعتبارات الأخرى.

يعرّف الصوفية التصوف في أبيات نسبت للحلاج:

لَيْسَ التَّصَوُّفُ حِيلَةً وَتَكَلُّفًا وَتَقَشُّفًا وَتَوَاجُدًا بِصِيَّاح

لَيْسَ التَّصَوُّفُ كِذْبَةً وَبَطَالَةً وَجَهَالَةً وَدَعَايَةً بِمُزَاح

بَلْ عِفَّةٌ وَمُرُوءَةٌ وَفُتُوَّةٌ وَفَنَاعَةٌ وَطَهَارَةٌ بِصَلَّاح

وَتُقَى وَعِلْمٌ وَاقْتِدَاءٌ وَصَفَا وَرِضَى وَصِدْقٌ وَوَفَا بِسَمَاح¹²

لا بدّ من التنبيه إلى الخلط الكبير بين مصطلحي التصوف والزهد، واللذان يختلفان بقدر ما يتداخلان، فالتصوف يزهر في البيئة البعيدة عن الإغراءات المادية¹³ أي أنه مصاحب للزهد. وقد حدّد الباحثون الفرق بينهما في نقطتين أساسيتين، فرق من حيث الغاية إذ يرون أنّ الزاهد يتحمل مرارة الحرمان من أجل الحصول على نعيم الآخرة فيما المتصوف يرجو من ذلك معرفة الله؛ ويتجلى الفرق الثاني من حيث الفكرة فالزاهد يخاف عقاب الله تعالى وجبروته فيما المتصوف ينعم بلطف الله وكرمه ومحبته¹⁴.

2-نشأته وتطوره:

ظهر التصوف حسب ابن خلدون في القرن الثاني للهجرة بعدما جنح الناس إلى الإقبال على الدنيا¹⁵، حيث أن كلمة التصوف لم يكن لها وجود في عصر الصحابة والتابعين¹⁶، بل إنّ التصوف لم يظهر كمذهب له مصطلحاته الخاصة به وكتبه وتعاليمه وقواعده وفلسفته ورجاله القائمين عليه إلا في القرن الثالث بعد الهجرة¹⁷ أي بعد ظهور أبو

نصر بن بشر الحافي والحاسبي وذي النون المصري¹⁸. استمر التصوف في التطور في القرنين السادس والسابع للهجرة وذلك بعد أن اتحد المتصوفة فيما يعرف بالطرق الصوفية التي تنضوي كل فرقة منها تحت لواء شيخ معين¹⁹، ويرى الباحثون أنه في هذه الفترة تم استيعاب التدين التقشفي المصاحب لاحتقار الحياة²⁰ وظهر ما يعرف بالكرامات، ومن أشهر متصوفة هذا الزمن الهمداني وابن سبعين الأندلسي²¹. جدير بالذكر أن المتصوفة قد اتخذوا لأنفسهم مكانا مستقلا بعيدا عن المسجد حيث مارسوا طقوسهم من قبل، ومن هنا نشأت كل من الزاوية والرباط والتكية ابتداءً من القرن الخامس للهجرة²².

3- رأي علماء الإسلام في التصوف:

لم يظهر التصوف الفعلي إلا في القرن الثاني للهجرة، ولذلك لم يدركه الإمامان أبو حنيفة ومالك رضي الله عنهما، لكن الشافعي شهد البدايات الأولى للتصوف فأذكره وقال: "لو أن رجلا تصوّف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يصير أحرق"، أما الإمام أحمد بن حنبل فقد أمر بهجر الحارث المحاسبي²³، في حين كان أبو الفرج الجوزي من أكثر العلماء تنبيها من المتصوفة حيث أفرد لهم فصلا في كتابه تلبس إبليس يبيّن فيه خطأ المتصوفة وهفواتهم²⁴.

4- التصوف في المغرب الإسلامي:

يصعب تحديد بداية ثابتة للتصوف ببلاد المغرب الإسلامي، ففي القرون الأولى كان من الصعب بمكان تصنيف الأشخاص وفصلهم بين فقيه وعالم ومتصوف لاجتماع كل صفات الخير والفضل فيهم، فقد حظي العلماء والأولياء والصلحاء على قدر كاف من العلوم الدينية الرائجة كما كانوا ميالين إلى الزهد²⁵.

لا نشك في أن التصوف الإسلامي مشرقى النشأة، ولكنه انتقل إلى المغرب الإسلامي عبر المنافذ الأربعة المعهودة وهي: الحج، طلاب العلم، المؤلفات، والتجارة²⁶. لعبت القيروان الدور البارز باعتبارها حلقة وصل بين المشرق والمغرب، حيث تأثرت تأثراً بارزاً بالتصوف المشرقي خاصة بعدما زارها ذو النون المصري باحثاً عن الصلحاء، ومن القيروان انطلق بعض الأهالي إلى مدن وبوادي المغرب وفي جعبتهم تعاليم صوفية ساهموا في نشرها²⁷. رغم كل ما سبق هنالك بعض الدراسات التي تشير إلى أن المتصوف أبو الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي والذي ينحدر من قلعة بني حماد هو أول متصوف تعرفه بلاد المغرب الإسلامي²⁸، وهذا رأي فيه نظر.

5- بجاية في القرن السابع هـ (نبذة عن الواقع السياسي والثقافي):

بعدما حقق أبو زكريا بن حفص استقلاله عن الدولة الموحدية، ضمّ قسنطينة سنة 626هـ بعد حصارها ثم توجه إلى بجاية وضمها هي الأخرى²⁹، ثم ما لبث أن ولّى عليها ابنه يحيى سنة 638هـ³⁰، وفي أثناء ولايته وصلت بجاية إلى الآفاق وتوسعت علاقاتها التجارية والثقافية مع مختلف الأقطار المشرقية والمغربية، ولا عجب في ذلك فقد ساهم أبو زكريا نفسه في تشييت أركان دولته التي أولى للعلم والعلماء مكانة راقية فيها، حيث جمع تحت لوائه العلماء وفحول الشعراء وأصحاب المعارف بل إنه جالس طلبة العلم وشاركهم في أحاديثهم³¹. استمر الثراء الفكري والعلمي في بجاية الحفصية نتيجة عوامل أخرى على غرار التنافس الكبير بين حكام كل من البلاط الحفصي والزيري والمريني في استجلاب العلماء، إضافة إلى حركة الهجرة الأندلسية إلى الممالك الثلاث والتي كان لبجاية نصيب منها، ناهيك عن الرحلات العلمية من وإلى بجاية³².

6- عنوان الدراية:

6-1-تعريف المؤلف: هو أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي أبو العباس الغبريني³²، على قول أغلب المؤرخين ، و يعود نسبه إلى قبيلة غبري من قبائل البربر في المغرب³³. ولد سنة 644 هـ و نشأ في بجاية و تعلم بها و بتونس ، و فاق عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم السبعين شيخا من افريقية و المغرب الأوسط و الأندلس³⁴، أبرزهم عبد الحق بن ربيع و أبو فارس عبد العزيز بن مخلوف و عبد الله بن محمد القلعي ، كما أخذ عنه هو بدوره كثيرون على غرار ابنه أبو القاسم أحمد و أبو سعيد أحمد³⁵. تولى القضاء مرات عديدة آخرها قضاء مدينة بجاية ، و في هذا السياق يذكر النباهي في ترجمته للغبريني في كتابه المرقبة العليا ما يلي : " كان في حكمه مهيبا شديدا مصيبا ، ذا معرفة بأصول الفقه وحفظ لفروعه و قيام على النوازل و تحقيق للمسائل ، و لما ولي القضاء ترك حضور الولائم و دخول الحمام، و سلك طريق اليأس من مداخل الناس"³⁶. كان له إلمام بعلوم الحديث والتفسير والعربية والمنطق وغيرها من العلوم، وله مصنفات عديدة أشهرها " عنوان الدراية "، "المورد الأصفي" و " الفصول الجامعة"³⁷. كانت وفاته على الأرجح سنة 704 هـ³⁸، حيث يذكر ابن خلدون أنه كان سفيرا للسلطان أبي البقاء خالد رفقة يحيى بن زكريا الحفصي إلى صاحب تونس وبعد رجوعهم سجن الغبريني نتيجة مكيدة دبرت له ثم قتل في السنة ذاتها³⁹. ولكن ثمة أخبار عن أن وفاته كانت بسبب الطاعون ببجاية سنة 714 هـ، وذكر عادل نويهض في تحقيقه للكتاب المذكور أن محمد بن أبي شنب وغيره من المؤرخين المغاربة يرجحون هذا التاريخ استنادا إلى مخطوطات قديمة.

6-2-مضمون الكتاب:

أ-مقدمة: يتبدأ الغبريني كتابه بمقدمة يبين فيها فضل علم الرجال أو علم السير والفائدة الكبيرة للترجمة لرجال السلف علماء كانوا أو مشايخ أو مؤلفين أو عبّادا، ويبين الطرق المختلفة والعديدة التي اتبعها من قبله في التأريخ للأعلام، وانتقد منهم من كان هدفه المباهاة

والمفاخرة، وشدد على ضرورة التماس المنفعة الأخروية ما يدل على الطابع الديني الغالب على شخصيته، ثم جنح للتعريف بكتابه الذي خصصه لمن عرف من العلماء ببجاية في المائة السابعة⁴⁰.

ب- ذكر الأشياخ الثلاثة ومن يستطرده ذكرهم معهم رضي الله عنهم:

يبدأ مصنفه بالحديث عن ما يسميهم بالأشياخ الثلاثة وهم كل من أبي مدين شعيب بن الحسن الأندلسي (ت 549هـ)، وأبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي (ت نحو 570هـ)، وأبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد بن إبراهيم الأزدي الإشبيلي (ت 581هـ)، ويذكر مع هؤلاء ترجمة لحوالي أربع و عشرين عالما آخر كلهم محاطين بمالة من إعجاب الغبريني وتبجيله لهم. ثم يواصل الترجمة لغيرهم دون أن يفصل بينهم بعنوان يميزهم بل يقول: "هذا أوان ذكر من بقي من العلماء الذين اشترطت في هذا الكتاب ذكرهم"، وفي خضم ترجمته لبقية الأعمال وفي سياق حديثه عن ابن عربي يورد فهرسا لمؤلفاته بلسان ابن عربي نفسه والتي تناهز المائتين وخمسين كتابا أغلبها في التصوف وأشهرها "كتاب الحضرة"، "الشرعية و الحقيقة"، و "الملك و الملكوت". الكتاب إجمالا به حوالي المائة وثمانية ترجمة واضحة لشيخوخ وعلماء، إضافة إلى ذكره لعلماء رأى وجوب التعريف بهم عند الإشارة إليهم، ومما يجدر الإشارة إليه هو أن الغبريني وعند انتهائه من الترجمة لأحدهم يذكر طريقة اتصال سنده بهم، كما أنه يذكر آثار المترجم لهم واطلاعه عليهم.

ج- برنامج مشيخته:

يذكر المؤلف برنامج مشيخته مبتدئا بمن أخذ عنهم علوم الدراية، ويقصد بها علم الفقه وعلم الأصلين والعربية وعلم المنطق وعلم التصوف⁴¹، ثم ينتقل إلى علوم الرواية والتي

يقصد بها علم تفسير القرآن، علوم الحديث، علوم الفقه، علوم العربية، علم التصوف والتذكير، علم أصول الدين وأصول الفقه⁴². هذا فيما يخص لب الكتاب، أما فيما يخص التحقيق فالنسخة التي بين أيدينا من تحقيق عادل نويهض الذي عرّف في مقدمة تحقيقه لهذا السفر مدينة بجاية وأورد شيئا من تاريخها⁴³، ثم ارتأى تعريف المؤلف فذكر اسمه ونشأته وتعليمه وحياته وأسلوبه ثم وفاته⁴⁴، ثم ذكر القيمة العلمية وأتبعها بمقدمة الطبعة الأولى بقلم ابن أبي شنب⁴⁵. كما أنه يورد في نهاية الكتاب فهرس لتسهيل الوصول إلى مبتغى القارئ بسرعة وسلاسة ومن بين الفهارس نجد: فهرس التراجم، فهرس الأعلام، فهرس الآيات والأحاديث، فهرس البلدان والأماكن، فهرس القبائل، فهرس القوافي... الخ.

6-3- القيمة العلمية:

لقد لقي هذا الكتاب اهتمام المؤرخين، فقام محمد بن أبي شنب بتحقيقه لأول مرة اعتمادا على المخطوطات التي كلف نفسه عناء البحث عنها، وقام بطبعته بالمطبعة الثعالبية سنة 1910م، حيث يذكر أنه حصل على المخطوط من المكتبة الدولية الجزائرية، ونسخة من الفقيه عبد الرزاق الأشرف قاضي باتنة، إضافة إلى نسخة كانت بحوزة العلامة علي بن الحاج موسى إمام مسجد عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر، ونسخة تعود للشيخ أبي القاسم محمد الحفناوي المدرس بالجامع الأعظم⁴⁶. يقول ابن أبي شنب في حقّه: " إنّ الكتاب المسمّى عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية للعلامة المحقق و الفهامة المدقق الجامع بين الدراية و الرواية قاضي القضاة ببجاية الشيخ أبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني رحمه الله ورضي عنه، كتاب تلوح أنوار الحقائق في سبيل عباراته ويعبق شذا عرف المعارف من بيان اشاراته، أورد فيه مؤلفه من تراجم علماء عصره وأخبار مصره ما يحتاجه المتشوق إلى فرائد الفوائد والمتشوق إلى أوابد العوائد مع ذكره وفياتهم ومؤلفاتهم وسيرهم في مذاهبهم وعاداتهم واستطراد الأحاديث الشريفة والآثار الصالحة المنيفة والمباحث الفقهية

والفتاوى الشرعية وغير ذلك مما لا يحصى ولا من غيره يستقصى"⁴⁷. أما محقق الكتاب عادل نويهض فيقول: " ميزة هذا الكتاب عن غيره من كتب التراجم والسير هي الشمول في التعريف بغير شيوخ المؤلف وتسجيله لبعض الأحداث التاريخية وإثباته لبعض النماذج الشعرية والنثرية المنسوبة للمترجم لهم.."، كما أنه يرى أن الغبريني حفظ لنا صورة صادقة عن الحياة العلمية بجاية مدة قرن كامل و على الصلات الوثيقة التي كانت تربطها مع الحواضر العلمية في المشرق والمغرب⁴⁸. مما يستفاد من هذا المؤلف - حسب ما وقفنا عليه - الحالة العلمية لجاية في القرن السابع الهجري، حيث كانت مقصد العلماء والفقهاء خاصة من إفريقية والأندلس والمغرب الأوسط، فالكاتب يورد قائمة لأسماء العلماء الوافدين عليها من أقطار العالم الإسلامي. كما يستفاد من برنامج مشيخته حيث يذكر المؤلفات الذائعة الصيت آنذاك (موطأ الإمام مالك، مدونة سحنون، الوجيز في شرح كتاب الله العزيز لابن غالب المحاربي الغرناطي... الخ)، إضافة إلى كونه يورد العلوم التي اهتم بها طلبة العلم، كما أنه يذكر طريقة التعليم آنذاك والتي تتنوع بين السماع والمباشرة أو التكرار وحل الصعاب بالكتب أو بالمذاكرة والبحث، وهو نفسه يذكر طريقة دراسته الفقه فيقول: " تلقيته تعلمًا وتفهمًا وتبسطًا بالقراءة على الفقيهين محمد عبد العزيز القيسي وأبي محمد عبد الله بن عبادة قرأت عليهما وسمعت منهما وتفقهت بهما وما زلت أحضر مجلسهما للإستفادة والنفع"⁴⁹. ومن مميزات هذا الكتاب أنه يورد تراجم لشخصيات لا يمكن العثور لهم على ترجمة في غيره من كتب التراجم، كتقي الدين الموصلي، وأبو العباس الجدلي الشريف، كما أن القارئ يمكنه استنباط همة الغبريني وتفانيه في طلب العلم.

6-4-النقد:

ككل مؤلف لابد لكتاب عنوان الدراية من هفوات أبرزها ترجمته للأعلام التي كانت غير ذاتية رغم معرفته الجيدة بكل ما كتبه، وفي هذا الإطار يقول المحقق: " عبارة الفقيه

المجتهد المحصل المتقن وعبرة الفقيه الصالح الزاهد الورع نجدها وصفا أطلقه المؤلف على المترجم لهم دون تمييز بين أديب وشاعر ومحدث ومؤرخ إذ من غير المعقول أن يكون جميع الأشخاص على مستوى واحد⁵⁰. وهذا شيء ملاحظ لا يخفى على ذي عقل، فالغبريني يورد أخبارا وأحداثا غير موثوق بها من أناس مجهولين كقوله "نقل من أثق بهم" أو "أخبرني بعض من وثقت بهم" دون أن يصرح بأسمائهم، إضافة إلى ذلك فهو لا ينتقد الشخصيات التي يوردها بل يبالغ في تعظيمها والتباهي بها، وذلك راجع إلى النزعة الصوفية التي يصرح بسلوكه إياها عند ترجمته لأي عبد الله محمد بن أبي القاسم السجلماسي حيث يقول: "وهو أحد من أخذت التصوف منه". ونتيجة لهذا فهو يؤمن بكل ما قيل عن كرامات الأولياء ويصدق كل قصصهم، ويتجلى هذا في حديثه في غير ما موضع فيقول أن الشيخ أبو علي المسيلي كان يأتي إلى الجامع الأعظم في الثلث الأخير من الليل للتهجد و كان هنالك من يتجسس عليه دون علمه فسمع تجويد القرآن عليه فقبل إنهم مؤمنو الجن، وأنه لما توفي ودفن بباب أمسيون غفر الله لما بين ضفتي المدينة⁵¹. كما أن الغبريني مولع بالجناس والمحسنات البديعية خاصة في تعريف الشخصيات التي يوردها وصفاتها، فمن هذه الألفاظ اللغوية المتميزة بالسجع قوله مثلا في ترجمته لأبي العباس أحمد بن عيسى بن عبد الرحمن الغماري: "كان ممن يستفاد بالنظر إليه، والمثول بين يديه، وكانت دروسه منقحة الإيراد عذبة المورد بقرب ما يستفاد"⁵²، وقوله في ترجمته لأبي البركات بن أبي بن الدنيا الطرابلسي: "كان ذا ديانة وفضيلة وصيانة ومازال قدره رفيعا وجناحه مكرما منيعا"⁵³.

7-الإشارات الصوفية الواردة في الكتاب:

نستشف من خلال قراءتنا للكتاب مجموعة من الملاحظات حول الممارسات الصوفية والواقع الديني ببجاية والتي سنحاول إجمالها وتبسيط الضوء عليها.

إن ذكر كل من الشيخ أبا مدين شعيب وأبي علي المسيلي وعبد الحق الإشيلي وحده كافٍ للإستدلال على التوجه الصوفي البارز في مدينة بجاية إذ يذكر الغبريني في مقدمة كتابه أنه يورد تراجمهم للتبرك بذكرهم⁵⁴، ناهيك عن الإيمان الكامل بآثار أبي مدين شعيب التي ينقلها عن ابن قنفذ الذي أثبتتها في مؤلفه أنس الفقير⁵⁵، ويظهر تأثر الغبريني بها كبيرا وهو قاضي قضاة بجاية فكيف بالعامّة إذ يقول في حقها: "تضمنت من جوامع المعاني ما يطول فيه التفصيل وتعظم به الإفادة لذوي التحصيل"⁵⁶. الإيمان الكامل بأن أبا مدين شعيب هو حامي مدينة بجاية حيث يذكر بعض العلماء أنه رأى ذا القرنين في المنام فسأله أسئلة أجاب عنها ثم قال له قل للشيخ أبا مدين أنت قطب والدراري دائرة بك، وأنت ستر لبجاية الناجية فبشك العلم في بجاية رحمة لهم وعناية⁵⁷ ويتضح ذلك من خلال تقديس للأشخاص وجعلهم في مراتب سامية.

عرفت بجاية في هذه الفترة ما يعرف بالأدب الصوفي متمثلا في نظم أشعار تعالج مواضيع صوفية بحتة مثل القصيدة التي نظمها أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري والتي يقول فيها:

سَفَرْتُ عَلَى وَجْهِ الْجَمِيلِ فَأَسْفَرَا	وَبَدَا هَلَالُ الْحُسْنِ مِنْهَا مُقَمِّرَا
وَدَنْتُ فَكَاشَفْتُ الْقُلُوبَ بِسِرِّهَا	وَسَقَّتْ شَرَابَ الْأَنْسِ مِنْهَا كَوْنَرَا
وَرَأَيْتُهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ أَبْصَرْتُ	عَيْنَايَ حَتَّى عُدْتُ كُلِّي مُبْصِرَا
وَسَمِعْتُ نُطْقَ النَّاطِقِينَ فَكُلُّهُمْ	بِالْحَمْدِ وَالتَّسْبِيحِ عَنْهَا أَخْبِرَا ⁵⁸

إضافة إلى القصيدة التي نظمها أبو عبد الله محمد بن الحسن بن ميمون التميمي القلعي ومنها:

أمن أجل أن بانوا فؤادك مغرم وقلبك خفاق ودمعك يسجم
وما ذاك إلا أن جسمك منجد وقلبك مع من سار في الركب منهم
ومن قائل في نظمه متعجبا وجسم بلا قلب فكيف رأيتم⁵⁹

وقول أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد السكتاني:

جَعَلْتُ كِتَابَ رِيِّ لِي بِضَاعَةً فَكَيْفَ أَخَافُ فَقْرًا أَوْ إِضَاعَةً
وَأَعْدَدْتُ الْقَنَاعَةَ رَأْسَ مَالِي وَهَلْ شَيْءٌ أَعَزُّ مِنَ الْقَنَاعَةِ⁶⁰

كما تميّز هذا العصر بالتأليف في التصوف باعتباره علما قائما بذاته، ومن أشهر المؤلفين أبو زكريا بن محجوبة السطيفي⁶¹، ومما يؤكد أن التصوف آنذاك كان من جملة العلوم ذكر عبارة "علم التصوف" عند الحديث عن الرصيد العلمي للعلماء المترجم لهم على غرار ابن عربي⁶²، إضافة إلى ما نقله الغبريني في برنامج مشيخته حيث يقول: "أما علم التصوف فعن الشيخ الفقيه أبي محمد عبد الحق بن ربيع"⁶³.

من الفوائد التي نستشفها من دراستنا لهذا الكتاب إدراك التطور الكبير في استخدام المصطلحات الصوفية مثل: القطب⁶⁴، الولاية⁶⁵، الفقير⁶⁶، التبرك⁶⁷، وكلمة سيدي التي تسبق إسم المترجم له. من خلال الإطلاع على التراجم المتواجدة في "عنوان الدراية" نلاحظ أن بجاية كانت قبلة لعلماء من مختلف أرجاء العالم الإسلامي وجلّهم لهم اهتمام بالتصوف، وبذلك نستطيع القول أن التصوف ببجاية كان متنوع المشارب بالنظر إلى الشيوخ والمدارس

التي نشأ فيها المترجم لهم كإفريقية، تونس، الأندلس، دمشق، مراكش، مكة، الموصل، وغيرها، فبجاية إذن جمعت آنذاك مختلف فروع التصوف المعروف وقتئذٍ من بين الظواهر السلبية المصاحبة لظهور التصوف ظاهرة الإيمان بالرؤى والإعتقاد بما خاصة رؤيا الرسول عليه الصلاة والسلام على غرار الرؤيا التي ادّعى السككاني أنه رأى فيها النبي يدعو له قائلا "الله يسترك بستره"⁶⁸، وتتكرر مثل هذه الرواية في مواضع كثيرة من الكتاب. كما لا يمكننا إغفال موضوع الكرامات الكثيرة ومن بينها قضية استجابة الدعاء، ومن أصحاب هذه الصفة حسب الغبريني ابن محجوبة السطيفي⁶⁹، إضافة إلى أبو الحسين عبيد الله بن عبد المجيد بن عمر بن يحيى الأزدي الذي قصده الناس للدعاء لهم⁷⁰. من الكرامات المتواترة أيضا ظاهرة التنبؤ بالغيب مثل تنبؤ أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي بموته⁷¹، إضافة إلى مخاطبة الجن التي ترد في غير ما موضع مثلما ورد عن أبي علي المسيلي⁷².

حظي المتصوفة بوجاهة لدى العامة من أتباعهم خاصة ابن سبعين المرسى الذي "كان له أتباع كثر من الفقراء ومن عامة الناس"⁷³، ومن المحتمل أن هذا ما حدا بالبعض من الأولياء إلى امتلاك الزوايا التي امتلكها غير واحد من الأولياء على غرار أبي زكريا المشهور بالزواوي الذي يقول الغبريني في خضم حديثه عنه: "خرج على الناس من زاويته"⁷⁴، والشيخ أبو الفضل قاسم القرطبي الذي يقول عنه معاوية الزواوي: "... فلما وقفت عند باب الزاوية أصابني هبة"⁷⁵، وما يهمننا من هاته الاستدلالات إثبات وجود الزوايا في بجاية في العهد الحفصي. اقترن التصوف بالزهد وهذا ملاحظ على جميع التراجم الواردة في الكتاب حيث جنحوا إلى التقلل من الدنيا والانقطاع عنها والاكتفاء بضروريات العيش؛ ولعلّ هذا ما دفع بعض الأولياء إلى التستر عن الناس باصطناع البله مثل أبي عبد الله العربي⁷⁶.

خاتمة:

لطالما كانت المؤلفات والكتب دليلاً على التقدم الحضاري والثقافي للدول والمجتمعات، ولكنها أيضاً مصدر نستشف منه الأحداث والوقائع تماماً كما نكتشف من خلالها المستوى العلمي للدول؛ والمؤلف الذي بين أيدينا للعلامة الغبريني مكننا من دراسة واقع التصوف ببحاية في العهد الحفصي واستخراج أهم مميزات من خلال إلقاء نظرة تفحصية على الأعلام المترجم لهم وتتبع سيرهم بروية ما جعلنا نخرج باستنتاجات مفادها أن التصوف ازدهر في بحاية آنئذ وانتشر انتشاراً واسعاً نتيجة عوامل عديدة أبرزها الاهتمام الكبير بالعلوم الدينية واستقطاب بحاية لمتصوفة من مختلف الأقاليم الإسلامية، نتج عن كل هذا انجذاب نحو التصوف الذي تبلور تحت ما يعرف بالطريقة التي مارست طقوسها في زوايا لها اسم لا يزال صدها رناتاً إلى الآن.

التهميش والمراجع:

- 1- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح: أحمد جاد، ط1، دار الغد الجديد، القاهرة، 2007، ص449.
- 2- صبري المقدسي، الموجز في المذاهب و الأديان، ج1، ط1، مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون، أربيل، 2007، ص340.
- 3- اسماعيل راجي الفاروقي، لويس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، تر: عبد الواحد لؤلؤة، مكتبة العبيكان، الرياض، 1418هـ، ص428.
- 4- صديق بن حسن القنوجي، أجد العلوم، ج2، دار الكتب العلم أية، بيروت، ص152.
- 5- ابن تيمية، الصوفية و الفقراء، تق: محمد جميل غازي، دار المدني، جدة، ص15.
- 6- صبري المقدسي، المرجع السابق، ص340.

- 7- نفسه.
- 8- محمد بن اسحاق الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، تح: آرثر جون أريبي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص6.
- 9- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج1، مج2، دار الفكر، بيروت، 2005، ص364.¹
- 10- رينولد نيكلسون، الصوفية في الإسلام، تر: نور الدين شريعة، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2002، ص11.
- 11- أبي القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تح: زكريا بن محمد الأنصاري، دار جوامع الكلم، القاهرة، ص311-312.
- 12- كامل مصطفى الشبيبي، شرح ديوان الحلاج، ط2، منشوات الجمل، طرابلس الغرب، 1993، ص428.
- 13- عبد السلام غرميني، المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن6هـ، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000، ص24.
- 14- عبد اللطيف الطيباوي، التصوف الإسلامي العربي: بحث في تطور الفكر العربي، دار الفجر، بيروت، 1928، ص27.
- 15- ابن خلدون، المرجع السابق، ص449.
- 16- عمر فروخ، التصوف في الإسلام، ط1، مكتبة منيمنة، بيروت، 1947، ص56.
- 17- إحسان إلهي ظهير، التصوف: المنشأ والمصدر، ط1، إدارة ترجمان السنة، لاهور، 1986، ص45.
- 18- عمر فروخ، المرجع السابق، ص94.

- 19- فاطمة الزهرة جدو، السلطة والمتصوفة في الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (479-635هـ/1086-1238م)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008، ص8.
- 20- تور أندريه، التصوف الإسلامي، تر: عدنان عباس علي، ط1، منشورات الجمل، كولونيا، 2003، ص18.
- 21- عمر فروخ، المرجع السابق، ص84.
- 22- أمينة بوتشيش، بجاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين 6هـ و7هـ، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2008، ص75.
- 23- عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ط2، مكتبة ابن تيمية، الكويت، 1984، ص ص425-430.
- 24- أبو الفرج بن الجوزي، تلبيس إبليس، ق2، تح: أحمد بن عثمان، ط1، دار الوطن للنشر، الراض، 2002، ابتداءً من ص918.
- 25- عبد السلام غرميني، المرجع السابق، ص247.
- 26- عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، ط1، دار الخليل القاسمي، المسيلة، 1427هـ، ص24.
- 27- عبد السلام غرميني، المرجع السابق، ص ص247-248.
- 28- أمينة بوتشيش، المرجع السابق، ص75.
- 29- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج6، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ص382.
- 30- ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح: محمد الشاذلي الفيقري، عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968، ص109.
- 31- نفسه، ص ص112-113.

مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) العدد العشرون 20 يناير 2018

- 32- مريم معلاش، الحياة العلمية ببجاية في ظل الدولة الحفصية خلال القرن السابع هـ، مذكرة ماستر، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة تلمسان، 2011، ص15.
- 33- ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث، القاهرة، ص252 ؛ أبو الحسن بن عبد الله النباهي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء و الفتيا (تاريخ قضاة الأندلس) ، ط5، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص132.
- 34- خير الدين الزركلي ، الأعلام، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 2002 ، ج1، ص90
- 35- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر ، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية ، بيروت ، 1980، ص 248-249.¹
- 36- محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ، ج1، ص215.
- النباهي، المصدر السابق، ص. 132 37
- عادل نويهض، المرجع السابق ، ص. 249 38
- 39- ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، تح: عادل نويهض، ط4 ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1983 ، ص340.
- 40- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج6، ص462.
- 41- أبو العباس الغبريني ، عنوان الدراية فيمن عرف من المائة السابعة ببجاية ، تح: عادل نويهض، ط2، دار الآفاق الجديدة ، بيروت، 1979، ص19-20
- 42- نفسه ، ص355.
- 43- نفسه ، ص ص 360-401.

- 43-نفسه، ص 7-8.
- 44-نفسه ، ص 9-10
- 45-نفسه، ص 16.
- 46-نفسه.
- 47-نفسه.
- 48-نفسه، ص 15.
- 49- نفسه، ص 355-356.
- 50-نفسه، ص 12.
- 51-نفسه، ص 39.
- 52-نفسه، ص 93.
- 53-نفسه ، ص 110.
- 54-نفسه، ص 20.
- 55-نفسه، ص 30-31.
- 56-نفسه، ص 32.
- 57-نفسه، ص 30.
- 58-نفسه.
- 59-نفسه، ص 70.
- 60-نفسه، ص 79.
- 61-نفسه، ص 104.
- 62-نفسه، ص 157.
- 63-نفسه، ص 359.

64- يقال في اللغة فلان قطب بني فلان أي سيدهم، أما اصطلاحاً فنسبة إلى القطبية وهي مرتبة ومقام وتمثل السلطة التنفيذية للعلم الإلهي الذي يعتبر السلطة التشريعية. ينظر: شوقي ضيف وآخرون، المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004، ص743؛ سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ط1، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص912.

65- هي مرتبة من مراتب القرب الإلهي التي لا تكتسب وإنما هي تعيين إلهي. ينظر: شوقي ضيف، المرجع السابق، ص1059.

66- الفقير هو ممن يسمون بال دراويش وهو نسبة إلى الفقر إلى الله وهو سلوك نفسي ومجاهدة. ينظر: ينظر شوقي ضيف، المرجع السابق، ص698؛ سعاد الحكيم، المرجع السابق، ص885.

67- التبرك لغة من التيمن. ينظر: شوقي ضيف، المرجع السابق، ص51.

68- الغبريني، المرجع السابق، ص82.

69- نفسه، ص104.

70- نفسه، ص107.

71- نفسه، ص154.

72- نفسه، ص39.

73- نفسه، ص237.

74- نفسه، ص129.

75- نفسه، ص176.

76- نفسه، ص49.